الباب الثانى

التربية فى العصور الوسطى

... ودق التاريخ أبواب العصور الوسطى .. ولعل أول من استخدم تعبير العصور الوسطى ، هم المؤرخون فى القرن السابع عشر ليعبروا عن فترة من عمر البشرية تمتد من سقوط الامبراطورية الرومانية عام ٤٧٦ الى حوالى ١٥٠٠ ميلادية حيث بدأت حركة النهضة الأوربية . وفى رأى بعض المؤرخين أن العصور الوسطى بدأت عندما أغلق الامبراطور جستنيان أكاديميات آثينا عام ٥٢٩ م. ويرى البعض أن نهاية العصور الوسطى حصلت باكتشاف أمريكا عام ١٤٩٢ م .

الفصل الثالث

التربية المسيحية

أخذت التربية المسيحية أشكالها المحددة فى العصور الوسطى حوالى القرن الخامس الى القرن الخامس عشر • وقد ظهرت فى جانبه النظرى على يد القديس أوجستين وتلاميذه ، وكذلك على أيدى الكثيرين من جهابذة المسيحيين الذين شكلوا أنماط وطرائق المدرسة المسيحية وخاصة نظام القديس توماس الاكوينى •

ويهمنا أن نشير هنا الى أن الديانة المسيحية قدمت للبشرية مفهوما كريما عن الفرد ، ولم يكن لهذا المفهوم من أثر عاجل فى الشئون السياسية والتربوية ولكنه بدأ يؤثر تدريجيا فى القرون التالية لدعوة السيد المسيح • اختلفت النظرة فى المفهوم المسيحى عنها عند الاغريق والرومان ، فالديمقراطية الاغريقية كانت للأحرار والقانون الرومانى فرق بين السـادة والعبيد • ولذلك فقد كانت دعوة جريئة ، المناداة بقيمة كل فـرد بغض النظر عن قوميته وجنسه ومكانته الاجتماعية وكونه رجلا أو امرأة • واختلفت المسيحية بذلك عن اليهودية ، واذا كان اليهود قد أصروا على التربية للجميع فانمـا يقصدون جميع اليهود ، واذا أصروا على أن يعرف كل فرد القانون فقد عنوا اليهود فى مجموعهم لانهم يرونهم شعب الله المختار •

وثمة فرق آخر مرتبط بالعدالة بالنسبة للانسان وضعت عند الاغريق والرومان على أسس مدنية ، أى وضعها الانسان ذاته ، أما المسيحية فالعدالة ذات أصل دينى ولذلك لم تؤثر المسيحية على السياسة وانفصل الدين عن السياسة •

ويلوح أن معظم اهتمام المسيحية فى أطوارها الأولى كان متجها لاصلاح المجتمع الوثنى الفاسد ، فقد هاجمت بشدة احتفالات المصارعة التى تسبح فى بحار من الدم كما عملت على تقييد الطلاق وعلى منع عادة وأد الأطفال : ويمكن أن نقارن بين المسيحية والوثنية فى أن الأولى ارتضت التضحية ، وارتضت الثانية الشهوة ، كما أكدت الأولى العواطف الانسانية بينما حبذت

الثانية القسوة والفظاظة ، واحسان وكرم المسيحية ، وتقتير وبخـــل في الوثنية · ويذكر المؤرخون أن القرون الثلاثة الأولى في تاريخ المسيحية عرفت طهارة وقناعة ، ويرون أن صفحة المسيحية البيضاء هي التي يسرت تغلبها على الحياة الرومانية بفسادها ودنسها ·

ويطلق على العصور الأولى للمسيحية « عصور التهذيب المدرسي » اذ أقبل الناس على هذه الحياة النظيفة لا يبغون من ورائها جاها أو منفعة أو نفوذا أو شرفا ، ولكنهم ارتضوها عن ايمان عميق ، واقتناع صادق ·

وقد حاولت الديانة المسيحية الجمع بين القدسية المسيحية والكمال البشري · وكان هذا الكمال البشرى محتلا قلب طريقة الحياة المسيحية · وقد أثرت فكرة الكمال هذه ، بل هيمنت على التربية المسيحية في قرونها الأولى· كما كان لها شأن كبير على التربية فيما بعد · لهذا فان القرون الأولى اتسمت بالاهتمام بالجانب الأخلاقي فرجل الدين هو المعلم ، أما المحتوى فهو الكتاب المقدس مع تعاليم ومثاليات المسيحية وقد هدفت هذه التربية لا الى نمو عقلي أو اجتماعي وانما الى خلق روحاني ·

والقارىء والدارس لحياة السيد المسيح يلمس بجلاء ايمانه العميـــق باخوة البشر والمساواة بينهم · ايمان جسدته خبرته الهائلة بالبشر وبمشاكل الحياة ·

وعندما نتكلم ـ في مثل هذا الكتاب ـ عن المعلمين العظام ، نسلط الأضواء على ما امتازوا به من عبقرية التعليم ، ومهارتهم المدهشة في تبسيط أعقد الأفكار والمذاهب ـ وقدرتهم الهائلة في توصيل معتنقاتهم الى سامعيهم· اذ تؤمن وتبسط وتوصل وتنجح في هذا ، فانك تبني صرحا ضخما من العقول والنفوس · ولكن هذا أمر جد عسير ، بل ان صعوبته البالغة في أول الثلاثة وهو الايمان ، ولو نجح فرد ما ، كما فعل نفر قليل جدا ، وحقق تلك العمليات الثلاث ، فان النتيجة يمكن تلخيصها في بساطة ـ أرجوا ألا تطيح أو تمس جلالها وروعتها ـ في الآتي :

ـ تتكون معان عند التلاميذ ·

ـ يثار تفكيرهم ·

ـ يقوى ويزداد حب استطلاعهم ·

- تنبلج الابتكارية ... وغيرها من الأمنيات العزيزات التى يسعى اليها كل مرب مخلص لمهنته .

وكان المسيح معلما عظيما فى ايمانه وتبسيطه وتوصيله .

وسوف نتبين المعالم الأساسية للتربية المسيحية فى العصر القبطى فى مصر أولا : ثم نتبينها ثانيا فى أوربا .

اولا - العصر القبطى

يرى بعض المؤرخين المهتمين بالتاريخ لأقباط مصر أن العصر القبطى بدأ بدخول المسيحية أرض مصر حوالى عام ٦٠ م أو خلال السنوات القليلة التى تلت هذا العام . وامتد الى سنة ٦٤١ م بالفتح العربى على يد عمرو بن العاص. ولعل هذه المدة الطويلة التى بلغت ست قرون لم تكن فى رأى البعض الآخر - ميدانا أينعت فيه (الثقافة) القبطية . بل ان مصر خضعت منذ ٣١ ق.م. للسيادة الرومانية وثقافتها ، والتى كانت بدورها متأثرة بثقافة الاغريق قبل أن يمشى مركب أنطونيوس المنتصر فى شوارع الاسكندرية بينما السم يهتك جسم كليوباترا الفتان .

جاءت الثقافة الرومانية/الاغريقية الى أرض مصر لتجد فيها ثقافة اغريقية عمرها زهاء ثلاثة قرون . على أن هذه الثقافة الاغريقية لم تستطع أن تتغلغل الى أعماق أراضى مصر الممتدة باتساع الدلتا وطول الشريط الذى يحف مجرى النيل جنوبا . كما أن بحار الرمال الفسيحة وبعض المناطق الجبلية الوعرة ... كل هذا أجبر الثقافة الاغريقية على الانحسار والتمركز فى مناطق قليلة محدودة تاركة بقية أرض مصر تنعم بالروح الفرعونية القديمة وتثريها بما يفد اليها من التعاليم المسيحية .

ولم تتهيأ للثقافة الاغريقية الفرص للتأثير فى حياة المصريين الا حوالى منتصف القرن الثالث . وما لبثت أن اكتملت ونضجت فى القرن الخامس(١). وفى رأى بعض المؤرخين اعتبار الفترة بين أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع مرحلة تحول ثقافى فى البيئة المصرية حيث صدر مرسوم التسامح الدينى عام ٣١١ م. وازداد عدد المسيحيين ، واكتمل نظام الكنيسة الرعوى،

---

(١) سليمان نسيم : تاريخ التربية القبطية ، ص ٣٤ .

وبهذا - فى رأيهم - ينتهى عصر سيادة الثقافة الاغريقية · ويبدأ العصر القبطى المسيحى الذى استمر الى قرابة بداية القرن الثامن حيث أصبحت اللغة الرسمية للدواوين والأجهزة الحكومية ·

ويمكن تقسيم العصر القبطى - من حيث دراسة المؤسسات التربوية ··· الى مرحلتين تليهما مرحلة اضمحلال تدريجى :

(أ) مرحلة اضطهاد الوثنية المسيحية :

فى هذه المرحلة التى امتدت من نهاية القرن الأول قبل الميلاد مع دخول الرومان مصر الى بداية القرن الرابع الميلادى (٣١١ م) بصدور مرسوم التسامح الدينى · وقد عرفنا أن بداية ظهور المسيحية فى مصر كانت عام ٦٠ م : ولكن المسيحيين وقعوا تحت وطأة اضطهاد من الوثنيين · ولكن هذا الاضطهاد لم يمنع جماهير غير قليلة من المصريين اعتناق المسيحية التى امتدت جنوبا الى الشلال والسودان وغربا متخطية حدود مصر مع ليبيا · وتتميز هذه الفترة بانتشار الرهبنة والأديرة ليس فقط هربا من الاضطهاد ولكن لكونها فكرة رسم لها الكتاب المقدس نماذج عدة ، كما ورد ذكرها ضمن تعاليم السيد المسيح ·

(ب) مرحلة سيادة الثقافة القبطية :

امتدت هذه المرحلة من أوائل القرن الرابع الى أوائل القرن الثامن · والجدير بالذكر فى هذه المرحلة اعتراف الدولة الرومانية عام ٣٧٩ بالديانة المسيحية كدين رسمى للدولة ·

وفى هذه المرحلة أيضا أغلقت جامعة أثينا الوثنية فى حوالى منتصف القرن السادس ، وباغلاقها دخل وثنيون كثيرون فى المسيحية ، كما بدأ نجم الثقافة القديمة يأفل ·

وقد ظهرت الثقافة القبطية فى الكثير مما أنتجه المصريون خلال تلك الفترة ، فظهرت فى شكل الزخارف المستعملة ·· كاتخاذ علامة الحياة (أو نخ أو عنخ) وهى قريبة الشبه بعلامة الصليب ، كما رسموا العذراء تحمل السيد المسيح كما رسموا أيضا مار جرجس يطعن الشيطان بشكل تنين كالاله هورس ممتطيا جوادا وهو يدوس ست اله الشر تحت أقدام جواده(١) ·

---

(١) المرجع السابق ، ص ٩٣ ·

كما رسم اقباط مصر على الأقمشة رموزا مسيحية تشـــير الى بعض المعانى التى وردت فى الانجيل كالحمامة والكرامة والسمكة ٠٠ وســـادت اللغة القبطية وأصبحت لغة الكنيسة والشعب والمكتبات الرسمية ٠

وبمجىء العرب الى مصر وشيوع سياسة فيها التسامح أوضح مما كان على يد البيزنطيين بدأت عناصر ثقافية أخرى تسير جنبا الى جنب مع الثقافة القبطية خاصة أن أفواجا من المصريين اعتنقوا الاسلام ، كما أن المسئولين المسلمين لم يجعلوا للدين السلطة الأولى فى تخير أصلح العناصر لتولى مناصب هامة وبانتشار اللغة العربية ـ وخاصة فى المدن والمراكز الكبيرة بدأت اللغة القبطية تنكمش تدريجيا ببطء ٠

المؤسسات التعليمية(١) :

١ ـ **المنزل** : أولت المسيحية ـ كما كان الحال فى مصر الفرعونية ـ اهتماما بالأطفال وتربيتهم ، فقدا أوصى القديس بولس (فى رسالته الى كنيسة أفسس اصحاح ٦ : ٤) وفى الكثير من رسائله ـ الآباء بان يولوا أولادهم عنايتهم ورعايتهم ، بل انه حذرهم من مغبة سوء معاملتهم لهـــم بقوله : « أيها الآباء لا تغيظوا أولادكم لئلا يفشلوا ، بل ربوهم بتاديب الرب وانذاره » ٠ ومعنى غيظ الأبناء يحمل ضمنا معنى العطف والاحتمال ٠ كما أن القديس بولس يوصى فى نفس الوقت الأبناء بطاعة والديهم قائلا : « أيها الأولاد أطيعوا والديكم فى الرب لأن هذا حق » « اكرم اباك وأمك التى هى أول وصية بوعد لكى يكون لكم خير وتكونون طوال الأعمار فى الأرض » ٠

كما حرصت المسيحية على استقرار الأسرة على أسس روحية ، فشبهت علاقة الزوج بزوجته كعلاقة الرأس بالجسد ، للزوج التدبير والتوجيه ، وعلى الزوجة الطاعة والتنفيذ ، على أن تقوم العلاقة بينهما على أساس المحبة ، وان يخضع كل منهما لصاحبه فى خوف الله ٠

ويذكر أيضا عن تاثير البيئة المنزلية فى تثبيت دعائم القيم الروحية والخلقية أن بعض المنازل بالاسكندرية وما حولها كانت تخصص حجرة للعبادة كانت تمارس ألوان للعبادات المختلفة كالصوم عن الطعام والشراب ومتـــع الجسد ، والتفرغ للقراءة والصلاة وترتيل الألحان ٠٠ الخ ٠

---

(١) عن المؤسسات التعليمية ، انظر المرجع السابق ، الفصل الخامس ٠

٢ - **الكنيسة :** لم تقتصر الكنائس - كما عرف عن دور العبادة فى سائر الأديان - على مجرد كونها أماكن يتعبد فيها الناس ويؤدون شعائر دينهم فبجوار دور العبادة أقيمت مدارس ، بل كانت كما ذكر يوسابيوس القيصرى مؤرخ الكنيسة فى القرن الرابع ، مدارس للتعليم عرفت باسم « مدارس الحوار » عن طريق السؤال والجواب • وقد عملت الكنيسة بوظيفتها الروحية والتربوية على تحقيق الهدف الأساسى من (التربية المسيحية) وهو تحقيق غرض الله من خلقه الانسان : أن يعبده ويحفظ وصاياه ليكون له نصيب فى ملكوت السماء • وكانت وسيلة تحقيق ذلك تتطلب تجديد سلوكه ليصبح سلوكه روحيا • لذلك فقد وجهت التربية المسيحية الأفـــراد الى تدريبهم على تكوين ارادة حرة تمكنهم من اختيار السلوك المسيحى وتجنب السلوك المخالف لتعاليم المسيحية ، هذا من وجهة نظر المربين المحدثين فى تحليلهم العصرى لدور الكنيسة التربوى فى ممصر القبطية • وقد توصلت الكنيسة الى تحقيق أهدافها بعدة وسائل واجراءات منها : نوال الطفل سر العماد ويتم هذا فى الأشهر الثلاثة الأولى من عمره ، وتنوب عنه أمه فى الاعتراف بالمسيح وتتعهد أمام الكاهن أن تربيه تربية أفضل • كما توجه الكنيسة الى الوالدين بهذه المناسبة نصائح هامة فى تربية طفلهما •

وعندما يصل الطفل الى مرحلة البلوغ توجهه الكنيسة الى ممارسة «سر التوبة» وهنا يعترف الفرد بالخطأ على أبيه الروحى وهو الكاهن • والملاحظ هنا فى ممارسة سر التوبة وأ الاعتراف ، الاهتمام الخاص بكل عضـــو فى الكنيسة فى ضوء ظروفه النفسية والاجتماعية والعقلية والصحية •

هذا ، ويرى مؤرخو الكنيسة القبطية فى مصر أن الطقوس التى كانت تمارسها الكنيسة هى ذات رسالة تربوية مستمرة تدعو المسيحيين الى ديمومة دمجهم فى الحياة الكنسية بما فيها من ورع وطهارة • كمـــا أن الصلوات والقداسات التى كانت تمارس فى الكنيسة القبطية بما فيها من موسيقا جمعت بين ألحان الفرح والحزن والخشوع جعل منها وسيلة فعالة لتربيـــة الوجدان •

ويذكر أيضا اهتمام الكنيسة القبطية بالتعليم عن طريق المثل العليا الممثلة فى أشخاص الشهداء وأعمالهم وتضحياتهم ومنجزاتهم ، وهم بذلك يضعون ركائز لأسس تربوية مشتقة من الواقـــع يمكن أن تفيد أجيـــال المسيحيين الصاعدة ، كما أن كتابات الآباء فى التربية الروحية وأقوالهم

اعتبرت ذخيرة لها وزنها التربوى ، حتى قال عنها بعض المؤرخين أنهـــا « نظرات روحية عميقة وحكمة سماوية عالية » · ومن بين هـــذه الكتابات « كتاب الراعى » لهرماس وكان هرماس قسيسا فى كنيسة القرن الأولى وقد حوى مجموعات من التعاليم والوصايا · وهناك أيضاً « كتاب المربى » لاكليمنضس الاسكندرى وكان يستخدم كمصدر للتعليم المسيحى فى العصر القبطى ·

والى جانب هذا الدور الروحى الذى قامت به الكنيسة فى مجال عملها كمؤسسة تربوية ، فانها كانت مؤسسة للتربية الاجتماعية والأحـــوال المدنية ، فقد عملت على تأكيد قوانين الزواج والطلاق وحماية الأسرة والطفولة، كما أنها وقفت ضد الاسترقاق ·

٣ ـ **المدرسة** : يذكر المؤرخون أن أول مدرسة مسيحية أقيمت بمصر كانت بالاسكندرية عام ٥٨ م ، وأنشأها القديس مار مرقس ، وكانت تهدف الى تعليم المصريين المسيحيين حقائق الدين الجديد · ولما ازداد العـــدد بين الحضور مع تفاوت فى أعمارهم خصص للصغار مدارس وللكبار أماكن فى مدارس الموعوظين · ولعل نظرة اجمـــالية للتعليم فى العصر القبطى تبين مرحلتين واضحتين : مرحلة التعليم الأولى وكان ميدانها الأول المنزل ، ثم المدرسة الابتدائية التى ألحقت اما بكنيسة أو دير ، وكانت المرحلة الثانية مرحلة تخصص ، وقامت أساسا على التلمذة لمعلم خاص من جانب المدرسة اللاهوتية التى تؤهل الدارس فيها لوظيفـــة الشموسية أو الكهنوت ، أو التدريس بالمدرسة نفسها ·

مراحل التعليم :

(أ) **التعليم بالمرحلة الأولى** : وكان اجباريا وبالمجـــان حيث ألحقت المدارس بالكنائس أو الأديرة · ولم يكن هناك سن معينة للالتحاق بهـــذه المرحلة الأولى ، كما لم تحدد مدة الدراسة · ودرس تلاميذ هذه المرحلة التى ربما التحقوا بها فى سن الخامسة ، اللغة وتعاليم الكتاب المقدس واستظهروا بعض المزامير والألحان الكنسية ، هذا أساس يضاف اليه تعليم بعض مبادىء الرياضة كحساب المساحات والموازين والمكاييل ··· الخ ·

أما الكبار فكانت لهم مدارس الموعوظين التى فتحت أبوابها للراغبين فى الدخول فى الايمان ، وكان الطالب يمر فى مراحل ثلاث فى فترة امتدت

الى عامين أو ثلاثة أعوام حتى يعد للعماد بعد أن أخذ فكرة عامة عن المسيحية واستمع فى الكنيسة الى القراءات الكنسية وتفسيرها ٠

(ب) مرحلة التعليم العالى : ولعل أبرز ما يمثلها هى جامعات اللاهوت التى انتشرت فى ربوع العالم المسيحى شرقا وغربا٠ ولم تعرف جامعات اللاهوت مبان خاصة بل كان الأساتذة يستقبلون طلبتهم بمنازلهم أو فى أماكن يرون أنها لائقة ٠ وقد شاع نظام «الطالب المتجول» الذى يرحل من جامعة الى أخرى سعيا وراء مزيد من العلم ٠ومما يذكر أنه لم تكن هناك مناهج مقررة ، وكانت للأساتذة حرية تخير ما يرونه مناسبا فى اطار من الخطوط العريضة المتفق عليها ٠ ويذكر أن مناهج التعليم العـــالى بالمدرسة اللاهوتية بالاسكندرية اشتملت على تعليم أصول العقيدة مع تفســـيرها وشرحها ، كمـــا اهتمت بالدراسات العلمية البحتة كالهندسة وعلم وظائف الأعضاء والفلك وكذلك اهتمت بالفلسفة والشعر والأخلاق لتنمية قوى التفكير والملاحظة ٠

وكانت أبرز المدارس العليا اللاهوتية بالاسكندرية ، غير أنه وجدت بالصعيد ٠ والصعيد الأعلى مراكز دراسة لاهوتية وأدبية ٠ بل وجدت بردية قبطية فى الدير الأبيض وهو من أديرة الانبا شنودة عند سوهاج ما يدل على اهتمام القبط بالدراسات الطبية ٠

هذا ولعل نظرة أخيرة وسريعة على التربية فى مصر القبطية تظهـــر اهتماما بالتعليم الدينى مع رعاية واضحة للعلوم الدنيوية ٠ وأن تشجيعا الى التعلم والتعليم جذب أعدادا غير قليلة من المسيحيين الى الالتحـــاق بدور العلم ٠ ويذكر أن الديانة المسيحية لم تعترض على تعليم البنت بل دعت الى اشتراكها فى الخدمة وجعلت ممنها شماسة أى معاونة للراعى فى خـــدمة السيدات ٠٠٠ ولم تتخلف المـرأة القبطية عنـــدما انشئت الأديرة ـ عن الرهبنة ٠ ويذكر أن القديس انطونيوس سلم أخته لأحد أديرة العذارى المنتشرة بجوار الكنائس ٠

والقديس أنطونيوس هو أول معلم فى الرهبانية (٢٥٠ ـ ٣٥٦ م) ٠ وقد هرع اليه فى صومعته التى انعزل فيها عدد من المتحمسين لحياته ٠ وفى سنة ٣٠٤ م أنشىء أول دير يضم التلاميذ حول معلمهم أنطونيوس على جبال الهضبة الشرقية ٠

وفى عام ٣١٤ م اعتنق جندى بيزنطى المسيحية وعكف عـــلى دراسة مبادئها وتتلمذ باخونيوس الجندى على القديس بليمون ، ثم انصرف الى مكان بالقرب من قنا فى مواجهة دندرة لحيا حياة التقشف والتوحيد • ثم اتصل به عدد من التلاميذ تزايد عـــددهم حتى ضمنتهم تسعة أديرة ، ثم اتسعت حركته لتضم ديرين للعذارى • واشترط فى الالتحاق بالدير الالمام بالقراءة والكتابة • واشتمل جدول المدرسة فى الدير ثلاثة دروس يومية لم تكن كلها مكرسة للأمور الدينية • ولعل من أهم ما أسهمت به الأديرة نسخ المخطوطات والكتب • والملاحظ أن أديرة باخونيوس ، وأديرة شنودة اهتمت الى جانب النسخ ، بالتعليم المهنى كصناعة الحصر والمقاطف والحدادة والنجارة والفلاحة وفتل الحبل الليف والحياكة والطهى وأعمال الخبز والعجن ، وأعمال البناء • وللأديرة يرجع فضل فى حفظ التراث العلمى والثقافى المصرى ، ولها دور فعال فى مقاومة البدع والخرافات •

أما عن اعداد المعلم فى مصر القبطية ، فقد اشترطت الكنيسة أن يكون طاهرا نقيا على خلق ، وأن يواصل ويواظب على الدرس والتحصيل • وكان الشماس يتكفل عادة بتعليم الموعوظين ، أما القس والاسقف فتكفلا بأعمال الرعاية الأخرى وخاصة تثبيت المؤمنين والرد على الهرطقات • ومما يذكر أن المعلم لم يكن بشهادة أو بعد حصوله على مؤهل دراسى ما ، وانما كانت تكفى شهادة بأنه درس على علم معروف وأنه قادر على تعليم غيره ، فاعداد المعلم وتخريجه ، كان أساسا قائما على فكرة التلمذة •

ومع دخول الاسلام أرض مصر واقبال الأفواج الغفيرة الى اعتناقه لما فيه من تسامح رفع الانسان الى درجة لم يشهدها فى ظل الاضطهاد البيزنطى ، اضطهاد كرامته وسطو على أمواله ، واعتداء على حرياته • ومع كثرة عدد المسلمين المتخيرين دين الله عن اقتناع ، مضافا اليه قلة مسلمة وفدت الى أرض مصر •• بدأت اللغة العربية تنتشر تدريجيا لتحل محل الاغريقيـــة ومحل القبطية • وبدأت ثقافة جديدة ينبلج فجرها لتغمر العالمين ولتتسيد عدة قرون •

وجدير بالذكر أن العصر القبطى بما شهده من رهبنة وديرية كان له فضل لا ينسى على نشر الفكرة فى أوربا العصور الوسطى كما سيأتى بيانه فيما بعد •

ولعل الدارس لتاريخ التربية يقف لحظة متأملا القرن الثامن الميلادى فى مصر الاسلامية • وقد امتد سلطان المسلمين حتى شمل بلاد الأندلس غربا فى شمال مرفرفا ألويته على جزائر فى البحر المتوسط وممتدا شرقا الى الهند وجنوبا الى البحر العربى ، يقف الدارس متأملا فى التربية فى مصر فى هذا القرن من الزمان وقد بدأ المصريون يتقبلون الثقافة العربيـــة الاسلامية بغير قليل من الحماس بينما تنحسر الثقافة الاغريقية ـ الرومانية ـ القبطية لتتمركز فى مراكز قليلة متفرقة ولا يعنى هذا تقليلا من شأنها • ولكن عجلة الزمن فى دورانها تتقدم متطلعة ومتقبلة الحديث المتطور •

وكانت العصور الوسطى ـ فى رأى المؤرخين المحدثين ـ قد بدأت منذ زمن طويل ، ولكن البداية التاريخية أو المؤرخة والمدونة على ورق فى كتب لا تعنى أن تغيرا طرأ على المجتمع • استلزم الأمر مئات قليلة من السنوات لتلمس البشرية هذا التطور •

ثانيا ـ التربية والثقافة الأوربية فى العصور الوسطى

تتحدد الأوضاع الاجتماعية والاقتصـادية للمجتمعات الأوربيـــة فى العصور الوسطى فى المعالم الآتية :

١ ـ شيوع الاقطاع :

فى خلال القرنين التاسع والعاشر أخذ النظام الاقطاعى ينمو باطراد وقد مهدت له حركة التطور العام نحو المحلية ، حتى اذا جاء القرنان الحادى عش مروالثانى عشر لم تكن هناك حكومات مركزية ، وتحول ولاء الجماعات الى السادة المحليين ممن تأسست على أيديهم أسرات اقطاعية كبرى ، ترجع أصولها فى معظم الأحوال الى القرن العاشر الميلادى • بل أصـــبح امتـــلاك الأرض مقترنا بحق امتلاك الحكم والسلطان ، وامتلاك الأرض يعنى امتلاك من عليها وما عليها • وأصبحت الأرض والسلطة ممتزجين بعضها ببعض • ومن ثم نشأت بين السيد والمسود علاقة تقوم على عدد من التعهدات والالتزامات متبادلة بين الطرفين • وكان هناك السيد الكبير ، وقد يكون الملك أو لوردا ، وهو مسيطر على مجموعة من البارونات يمنح كلا منهم أرضا فى مقابل أن يؤدى البارون لسيده خدمات حربية معينة ويتعهد بالمثول أمام محكمته الخاصة للفصل فى قضايا التابعين • والبارون بموجب النظام الاقطاعى هو الحاكم فيما تحت يده من الأراضى ومن عليها من السكان •

٢ - ظهور المدن :

بقيام جماعة التجار وتكتلهم معا للقيام بأعمالهم مجتمعين وانشاء أماكن مستقلة عن قلعة البارون أو النبيل ، بدأت تتكون طبقة تسكن (الضواحى) على مقربة من القلاع الكبيرة أو فى حمى دير كبير ، على أن تكون على طريق رئيسى ييسر نقل البضائع ، وكانت هذه الضواحى بداية ظهور المدن فى أوربا ، على أن قيام أية مدينة كان يتطلب منحها (براءة) يصدرها الملك أو النبيل أو الأسقف ، ويعين فى البراءة السكان ورعويتهم وادارة المدينة والامتيازات التى تمنح لها • وكان سكانها غالبا من البرجوازيين (الطبقة المتوسطة) وهم من التجار والصناع المتحررين من ربقة القنية الاقطاعية •

٣ - التجارة :

يرجع الفضل للحروب الصليبية فى توسيع مدى التعامل التجارى بين أوربا والشرق ، كما أن التجارة فى أوربا ذاتها بدأت تثير اهتمام الملوك والأمراء للعمل على تحسين الطرق واقامة الجسور على الأنهار ، لما فى ذلك من فوائد تزيد ما يدخل خزائنهم من ذهب • كما وضعت القوانين لحماية التجار من اللصوص والقراصنة ، وظهرت التحسينات فى بناء السفن ليزيد حجمها فتحمل أكثر • وكانت أوربا تستورد من بلدان الشرق العربى التوابل والبرتقال والمشمش والتين والزبيب والعقاقير والأصباغ والأقطان والحرير الخام والمشغول مثل أقمشة الدمقس (دمشق) والموصلين (الموصل) والبلدشين (بغداد) والشاش (غزة) ، وكانت أوربا تصدر للشرق العربى الخشب ، والسلاح ، والأصواف ، وأدوات زراعية وخزفا ••• الخ •

٤ - النقابات :

كان الانتاج الصناعى الذى بدأ ينمو فى أوربا بحاجة الى من ينظمه ويحميه وقد أخذ الصناع منذ أن بدأت قيمتهم فى مجتمع المدينة تقوى بانشاء جماعات (طوائف) صناعية تهتم بشئونهم ، وكان بعضها يقوم على أساس دينى ثم تطور الى النواحى الاجتماعية والاقتصادية • فظهرت النقابات الصناعية والتجارية فى أكثر المدن الأوروبية(١) •

---

(١) من أهم المدن : البندقية (١٩٠ الف نسمة) - لندن (٤٦ الف سنة) - بروكسل (٤٠ الفا) - ستراسبورج (٢٦ الفا) ثم ميلان وجنوة وفلورنسا ، وكان يسكن كل منهما حوالى مائة الف نسمة •

وكان أعضاء النقابة ثلاثة أقسام على أساس درجة العضو فى اتقان الصناعة : التلميذ ـ الأجير ـ المعلم • وكان يدفع رسوما قبل أن يصبح عضوا ، وكان يسكن بيت المعلم ويأكل عنده ، ويخضع لرقابة معلمه الصارمة الشديدة ، وتتراوح مدة التلمذة بين سنتين وسبع سنوات على حسب الصناعة ثم يصبح التلميذ أجيرا ثم اذا أثبت تفوقا وشهد له بذلك فتح مصنعا •

وكانت هناك نقابات للتجار ، هدفها حماية أعضائها ضد النبلاء وتأمين معاملة عادلة فى الأسواق البعيدة ، وللتأكد من مراعاة القوانين التجارية داخل المدينة ذاتها • وكثيرا ما كانت نقابات الصناع تتعاون مع نقابات التجار فى تنظيم الناحية الاقتصادية •

٥ ـ الحياة الدينية :

تمركزت الحياة الدينية فى أوربا المسيحية فى العصور الوسطى حول محورين الأول هو البابوية باعتبار أنها الرياسة العليا للكنيسة ، والثانى التنظيمات الكهنوتية ، ويهمنا من المحور الثانى الرهبنة وأنظمتها المختلفة ، فعندما كان يعتور الحياة الروحية فتور كان يعيد اليها الحيوية نظام رهبنة جديد ، بل اتخذ النظام الروحى أحيانا مزيجا من الرهبنة والعمل العسكرى، كما وجد فى الفرق الدينية الثلاث وهى : الهيكليون ، وفرسان المستشفى ، وفرسان التيوتون • كما حاولت الكنيسة برجالها ورهبانها أن تخفف من ويلات الصراعات التى استمرت أجيالا طويلة للتنازع على السلطة ابان العصر الاقطاعى ، فقام رجالها منظمين السلم الالهى وفرض الهدنة الالهية ، وفيها يمنع القتال فى أيام معينة • وكانت محاولات لم يكتب لها نجاح كبير •

التربية فى العصور الوسطى فى اوربا :

يمكن تلخيص المثل العليا المسيحية فى العصور الوسطى بأنها آكدت :

١ ـ القيمة الكبرى للمسائل الروحية •

٢ ـ الاهتمام بالحياة الآخرة •

٣ ـ التساوى الروحى للخلق أمام الله •

٤ ـ شرف العمل وتطبيق مبادىء العدالة فى العلاقات بين الأفراد العاملين •

٥ - وحدة البشر ٠

٦ - أن أول واجبات الفرد خدمة ربه وزملائه ونفسه ٠

ولكن الواقع العملى فى تلك العصور لم يسم الى هذه المثل ٠ بل لقد طغت على العقل الخرافات والبدع والأوهام ، وكان العقل يخافها جميعا ٠ فما زالت فيه آثار من وثنية طمرها التاريخ ٠ كان العقل يميل ناحية الجماعة فيلفظ المارقين على التعاليم الكنسية المتفق عليها ٠ كما كان عقلا شغوفا بالعالم الآخر ٠ فتطلع من الأرض الى السماء ، ومن المحدود الى اللانهائى ، ومن المؤقت الى الخالد ، ولكن بدأ يتغير بتأثير نمو التجارة وظهور البورجوازية والحروب الصليبية واحتكاك الأوربيين بثقافات العرب وغيرهم ٠

وكان هدف التربية فى العصور الوسطى مشتقا من الظروف الاجتماعية فهدفت الى خدمة الرب والكنيسة والخلق والنفس ، وبهذا يكون للتربية غرض مزدوج مؤكدا على مطالب الكنيسة ومطالب الحياة ، ومع ذلك فان المدارس ، عدا الجامعات ، منحت تربية عامة ذات طابع أدبى دينى ، وفيما يلى عرض سريع لجوانب هذه التربية :

١ - حركة احياء العلوم :

فى عصر شارلمان الذى أسس الامبراطورية الرومانية المقدسة عام ٨٠٠ م حاول ، ونجح فى محاولته ، أن ينقل الثقافة الرومانية ، ويوفق بينها وبين ثقافة جماعة البرابرة الذين اعتنقوا المسيحية ورمى من محاولته الى تكوين وحدة داخلية ثقافية تربط بين سكان امبراطوريته ، وقد اعتمد شارلمان فى محاولته على كثيرين من رهبان الأديرة ومنهم الكوين Alcuin

كما أصدر شارلمان فى عام ٧٨٧ م أوامر الى جميع أساقفة فرنسا ورؤساء أديرتها يلومهم فيها على استخدام الألفاظ الخشنة و « الألسنة غير المهذبة »(١) كما حث كل كنيسة ودير على انشاء مدارس يتعلم فيها رجال الدير وغيرهم الكتابة والقراءة ، وحرص على أن يساوى فى التعليم بين القنة والأحرار ، كما أدرج فى هذه المدارس تعليما طبيا بما كان شائعا من خرافات وأوهام ، وكان يدرس بهذه المدارس الحساب والنحو والمزامير والموسيقى والغناء ٠

---

(١) وهيب ابراهيم سمعان : الثقافة والتربية فى العصور الوسطى ، ص ١٧٥ ٠

ومن أشهر المربين فى القرن الثامن الميلادى ، الكوين Alcuin (٧٣٥ - ٨٠٤) الذى رأس دير Tours وجعل منه مركزا للثقافة العلمية فى فرنسا • ومن رأى الكوين رفض دراسة الآداب القديمة مع عناية خاصة اهتم بها فى المظهر الصوفى ، وقد اهتم الكوين بدراسة الفنون العقلية الحرة السبعة (وهى الحساب والهندسة والفلك ، والتناسق الموسيقى ، والمنطق ، والبيان ، والفلسفة) ، وكان يقول بجعلها أساسا للتعليم لأنها الاساطين التى قام عليها معبد الحكمة •

٢ - التصوف :

وكان للتصوف علاقة كبيرة بالأديرة ، ولذا كان المتصوفون من الرهبان ، وهدف المتصوف الأسمى من الحياة ، الوصول الى الكمال الروحى والعلمى ، وليصل الى هذا الهدف كان عليه أن يهمل كل ما يأتى عن طريق الحواس ، فيعتزل الفرد عن هذا العالم منكمشا فى نفسه حتى تفنى شخصيته فى عالم الأرواح وتندمج فى اللانهائية ، فيرى المتصوف ما لا نراه وتنكشف له العجائب ويعرف الأسرار الباطنية • والتصوف كأسلوب تدين هو أوسع التجارب الروحية ، وكأسلوب فلسفة هو أشدها توغلا فى المعنوية والمثالية المجردة ، وكأسلوب التربية هو غاية الفكرة التهذيبية •

أما عن تربية المتصوفين فقد اهتمت بقيمة التفكير وأثره فى تنمية العقل من الناحية التأملية • وتؤمن هذه التربية بايمان المتصوفين بثلاثية طبيعية الروح ، فلها جزء حيوانى مرتبط بالجسم ، وجزء مفكر هو مظهرها الانسانى، ثم جزء روحانى يرتفع عن مستوى الانسانية حيث يلتقى الانسان بالعقل الأسمى أى العقل المقدس • ويمكن أن نفهم الله وأن نصل الى اللانهائية الحقيقية عن طريق التحليل والتجريد - عن طريق اهمال جميع المؤثرات الحسية والانغماس فى أفكار الانسان الذاتية(١) •

وكانت أولى مراحل التربية الصوفية تلك التى يعمل فيها الفرد على التخلص من كل ما من شأنه أن يحجب عنه رؤية الكائن المقدس ، ومن المؤثرات الحسية ومن الملذات المادية والمتع العالية ، فالفرد فى هذه المرحلة يجاهد ضد الحياة الخارجية ثم يصل الفرد فى المرحلة الثانية ، وهى مرحلة

---

(١) منرو : المرجع السابق ، ص ٢٨٠ - ٢٨١ •

اضاءة الحياة وتنويرها فيقوم المتصوف بالأعمال الطيبة من تلقاء نفسه . وهو هنا يجاهد داخليا . أما المرحلة الثالثة فهى مرحلة الاتحاد والحياة .

٣ - الفروسية :

ارتبطت الفروسية بالمثل العليا الاجتماعية الراقية . ومنزلتها فى الحياة الدنيوية كمنزلة الرهبنة فى الحياة الدينية ، والأصل فى الفروسية عمل اجتماعى أقرته الكنيسة وعهد به الى الفرسان الذين أهلتهم قدراتهم ومكانتهم المادية من مد يد العون لغيرهم . ولكى يصبح الفرد فارسا ، يخضع لنظام تربوى قوامه الأعمال البطولية والتهذيب ، فالفارس فرد مطيع مستقيم متعاون . وطبيعى أن هذه التربية اقتصرت على طبقة الأحرار الأثرياء القادرين على القيام بمهام الفارس وقد سارت الفروسية جنبا الى جنب مع الاقطاع مكونة كيانا خاصا داخل المجتمع ومحتلة مكانة سامية فيه .

والفارس سيد بمعنى الكلمة ، فوعده مقدس وشجاعته لا يتطرق اليها شك ، ويمجد النصر الحربى ، ومع هذا فقد كانت له أحيانا نزوات من الغضب الجارف وقد اعطت الفروسية لمجتمع القرون الوسطى مثلا عليا فى معنى الطاعة واحترام النظام والذات والخدمة ، وقد تأثرت فى هذا بتعاليم الكنيسة التى علمتهم كيف يحترمون الضعفاء ويندفعون للدفاع عنهم ، ومع ذلك فأحيانا كان الغضب يدفع الفارس الى سرعة سفك الدماء ، بل وقد يكون ذلك على حساب الضعفاء .

وتقسم تربية الفارس الى مرحلتين ، مرحلة تربية الغلام وهى من سن السابعة الى الرابعة عشرة ، ثم مرحلة البالغ الى سن الحادية والعشرين . وفى المرحلة الأولى كان الغلام يقوم بالخدمة فى احدى القلاع وخاصة خدمة السيدات ثم يخدم على الموائد بعد أن يكبر ، ثم يقدم فى مرحلة النبوغ عددا من الخدمات لسيده ، ثم يصبح الخادم الشخص المباشر للفارس فى المعركة والحفلات العامة ، وكان أهم ما يتعلمه الشاب ، الحب والدين والحرب، فيتعلم كيف يرق ويتعطف ويتلطف ويتخير أنسب الكلام وأعذبه ، ويقرض الشعر والعزف على آلة موسيقية هى القيثارة مع الترنم بأغنية جميلة ، ويتعلم كيف يلعب الشطرنج ويسلى النساء ويبعث السرور والمرح الى الأفئدة . هذا الى جانب ركوب الخيل والمبارزة وفنون القتال المختلفة والصيد بأنواعه ، وتعليم دينى يلف كل هذا بطبقة حامية مانعة من الوقوع فى الرذيلة ، بل كان يقوم بطقوس دينية للتطهير ، ويجب عليه أن يبارك سيفه على يد قسيس .

ثم يقسم الفارس فى حفل كنسى على الدفاع عن الكنيسة والنساء والفقراء • أما تربيته العقلية فكانت ضحلة اللهم الا من تعلم الفرنسية وكانت لغة الفروسية فى العصور المتأخرة من القرون الوسطى •

٤ ـ الرهبنة والديرية :

تنوعت الرهبنة فى المسيحية ، فهنالك الراهب المتبتل فى خشـــوع الذى يتخذ له مأوى وسكنا بعيدا عن العمران كالصحراء مثـــلا ، وعرفت العصور الوسطى أيضا الراهب الجوال الساعى فى الأرض ملتفا بحيـــاة دينية صارمة ، وهناك أيضاً المتصوف الزاهد فى صومعته ، ثم اليسوعى العبقرى الذى يعمل فى المدرسة • وفى الفترة بين القرنين السادس والثالث عشر لم يكن هناك من المؤسسات التربوية ما يحمل لـــواء النواحى العقلية سوى المدارس الكاتدرائية التى يدرس بها جماعات الرهبان •

ولا يتبادر الى الذهن أن الرهبة من اختراع المسيحيين فقد عرفهـــا المصريون القدماء والفرس واليهود والاغريق ، وكانت ترمى الى الوصول بالروح لأسمى درجات الكمال والزهد فى ماديات الحياة الدنيا بكبح النفس عن الشهوات والصيام والتعذيب والنشاط البـــدنى المستمر والنظر الى المطالب الدنيوية نظرة ازدراء • وقد وجد مبدأ التصوف فى تعاليم المسيح أكبر مشجع لها ، تلك التعاليم القاضية بألا يفكر الانسان فى غده وأن يبيع ما يملك ويعطى الفقير ، وأن يترك المرء أباه وأمه وزوجته وأولاده فى سبيل الله • وكذلك فى نصائح السيد المسيح المتكررة القاضية بأن يحقر الانسان من أمر الدنيا ، ويكرس حياته لخدمة الانجيل ونشر تعاليمه(١) : ومما يساعد على الرهبنة وتطورها ما أصاب المسيحية من اضطهاد فى سنيها الأولى مما أدى ببعض المتحمسين الى الاعتصام بالجبال والكهوف ووحشة الصحراء فى انتظار عودة المسيح ثانية •

واتسمت الحياة الديرية بالتهذيب والعمل والتدريب ، فمثلا أديرة بندكت كانت تحدد يوميا سبع ساعات للعمل اليـــدوى أو الأدبى ، ومن ساعتين الى خمس ساعات للقراءة ، وبذلك أتيحت الفرصة للدراسة داخل جدران بعض الأديرة التى حفظت الكتب فى خزانتها ، وكان هناك متسع من

---

(١) منرو : المرجع السابق ، ص ٢٤٤ •

الوقت لعمليات النسخ والكتابة والقراءة · واختلفت الأديرة فيما كان يدور داخلها من تعاليم وتحصيل فقد ازدهرت الدراسة فى بعضها بينما أقفرت فى بعضها الآخر الذى لم يكن فيه أكثر من عدة نسخ لكتاب واحد · ويلوح أن الغالبية كانت من النوع الأخير الذى ارتأى فى الدراسات الأدبية القديمة التى حرمتها الكنيسة مغريات وأمور دنيوية تتعارض مع حياة النسك والتقشف ، أضف الى ذلك تعدد المذاهب المسيحية ، حتى فى ذلك الوقت المبكر من المسيحية حيث بلغ عددها أيام القديس أوغسطين ٨٥ مذهبا ·

وعرف التعليم فى داخل الأديرة على نطاق ضيق ضئيل ، فهو يتضمن القراءة والكتابة والغناء وحساب التقويم الكنسى ، وكان ذلك وقفا على عدد قليل ممن سينخرطون فى سلك الرهبنة التى لم تقبل سنا أقل من ١٨ سنة ، ثم يدرس الطالب سنتين · أما قبل هذه السن فلم يكن هناك تعليم يذكر · ويذكر أن شارلمان اعتنى بمدارس الأديرة بمساعدة الكوين وزيره ، فطورها حتى لا تقتصر على مجرد الاعداد للحياة الديرية فقط ، وعلى العموم فان الأديرة استأثرت بالتعليم واحتكرته حتى القرن الحادى عشر ، ويلوح أن هذا كان مناسبا لحياة الناس الذين كان يهمهم التعليم بقدر اهتمامهم بحياة القتال والحروب والتدمير ·

وثمة مكرمة أسدتها الأديرة للتربية والتعليم جاءت من وحى النظام اليومى للناس ، فقد أعفى بعض النساك من الأعمال العضلية الشاقة وكلفوا عوضا عنها بنسخ المخطوطات من الأدبين اليونانى والرومانى القديمة ، ويظهر أن أديرة الراهبات اسهمت بقسط كبير فى عمليات النسخ هذه ، ويساورنا الشك فى أمانة النقل ، فتدل شواهد تاريخية على أن الرهبان أفنوا وأزالوا ما تعارض مع عقيدتهم من كتابات وأقوال ·

واذا كان العرب قد احتفظوا ببعض التراث الاغريقى والرومانى وترجموا منه ومزجوا بينه وبين ثقافتهم وغيرها من الثقافات ، ثم انتقل الى أوربا ووصل الى الأديرة ، فانها (الأديرة) أبقت على هذا التراث ، بل حوت خزائن الكتب فيها كنوزا ثقافية صانتها من عبث برابرة الشمال ·

ويلوح أن عدوى الاهتمام بالكتب وحفظها عند بعض أثرياء وأشراف الأندلس من العرب ، قد انتقلت الى قلاع الأشراف ، فقد أعجب هؤلاء تفاخر الأديرة بما فيها من كتب ، فزينوا قلاعهم بمكتبات أضحت منافسة للمؤسسات القديمة فى هذا السبيل · واستمرت القلاع والأديرة خزائن للكتب حتى اخترعت الطباعة وانتشرت الجامعات وورثت هذه المهمة ·

واذ كان الرهبان قد اتخذوا من نسخ الكتب موردا للرزق ، فانهم أنتجوا انتاجا أدبيا عن حياة القديسين ، وقصصا أخلاقية مختصرة وشرحا للكتاب المقدس وتاريخ الأديرة ، وغير ذلك من الانتاج الذى سما بعملهم عن مجرد النقل والنسخ فهم الذين كتبوا فى الفنون العقلية السبعة الحرة Studium generale (أو ما يطلق عليها الدراسات الأكاديمية) التى تضم جميع العلوم التى كانت معروفة وقتئذ • وقد سبق أفلاطون بأن فرق بين مجموعتين من هذه العلوم ، مجموعة المواد الثلاثية ، والمجموعة الرباعية• والأولى تقوم على دراسة الأدب دراسة بلاغية نحوية ، (القواعد والبيان والنحو) والثانية تهتم بالدراسة العملية القائمة على دراسة العلوم الرياضية الحساب والهندسة ـ والفلك والموسيقا •

ومما هو جدير بالذكر أن الهندسة التى كانوا يدرسونها فى تلك الأزمنة كانت تشتمل دائما على مبادىء الجغرافية ، ويشتمل الفلك على الطبيعة • والنحو يشمل الأدب ، ويضم البيان ضمن أبوابه التاريخ •

٥ ـ الحركة المدرسية :

وهذا اصطلاح أطلق على الحياة التعليمية والتربوية من القرن الحادى عشر الى الخامس عشر ، وتمخضت عن ظهور الجامعات • والحركة المدرسية أسلوب من أساليب النشاط العقلى ، فقد عهدنا الحياة العقلية فى الشطر الأول من العصور الوسطى خاضعة للكنيسة خضوعا شديدا • ومع مجىء أفكار وثنية من الشرق ، وذهاب الحملات الصليبية الى الاراضى المقدسة وتأثيرات العرب الفكرية ، كل هذه أثارت التفكير والتساؤل عن سلطان الكنيسة العقلى ، وهزت العزلة التى عاشتها الحياة العقلية فى الغرب ، وهدفت الحركة المدرسية الى الاستعانة بالعقل فى الدفاع عن العقيدة ، وتقوية الحياة الدينية والكنيسة عن طريق تقوية المواهب العقلية ، والقضاء على الشك والحاد والهرطقة عن طريق المناقشة • وكان الصراع بين العقل والسلطة الكنسية ••• ولكنه صراع من أجل التوفيق •

ومن خلال هذا الهدف تبلورت رسالة الحركة المدرسية يمكن تلخيصها فى الرغبة فى صياغة المعتقدات فى أسلوب منطقى ويدافع عنها منطقيا ، ولكن فى غير تشكك فى سلطة الكنيسة ، ثم تنظيم المعرفة وصبغها بالصبغة العلمية الشكلية ، ثم المام الفرد بتلك المعارف المنظمة • وتظهر روح التوفيق فى هذه الاهداف ، فلم تحارب الكنيسة ولم يهمل العقل ، ولذلك فكان

منهاج الدراسة مزيجا من اللاهوت والفلسفة ·· بل هو فى الواقع امتزاج بين المعتقدات المسيحية ومنطق أرسطو · فصاغ المنهج المدرسى العقائد اللاهوتية الكبرى صياغة فلسفية كالمشاكل المرتبطة بالقضاء والقدر وحرية الارادة وعشاء الرب والتثليث وغيرها ·

ويلوح أن المعرفة السطحية لبعض جوانب فلسفة أرسطو وأفلاطون جعلت مبادئها على شيء من الوفاق ، ثم بان فيما بعد اختلاف جوهرى فى نظرية المعرفة فأفلاطون اعتقد أن الأفكار هى وحدها التى تتكون منها الحقيقة (المذهب الحقيقى عند المسيحيين الأرثوذكس) وهذه الأفكار موجودة فعلا فى العقل الالهى ، ورأى أرسطو أن الأفكار العامة أسماء وان الحقيقة هى الموجودة فعلا · كان اختلاف الرأيين ركيزة الحياة العقلية فى هذه الفترة من العصور الوسطى ·

وقد سارت نظم التربية المدرسية على أساس منطق المادة ، لا قدرة المتعلمين والمنطق المعترف به وقتئذ هو المنطق القياسى ، وأدى هذا الى صب جميع التلاميذ فى قالب واحد ، فكان الطفل ـ أى طفل ـ يتعلم بالطريقة التى تناسب عقل الراشد ، ويدرس مثلا مادة النحو بطريقتها المنطقية الدقيقة ·

واستمر هذا الاتجاه التربوى سائدا حتى القرن الخامس عشر ، وقد أنتج الكثير من الكتب وأثر فى عقول الدارسين تأثيرا بالغا ، ورآه فلاسفة القرون التالية جديرا بكل سخرية وتهكم · فقد تحولت الحركة المدرسية الى شكليات تقف فى سبيل كل تقدم ، بل قد وصفت مؤلفاتهم بأنها نوع رخيص من المعرفة وأن مؤلفيها مجانين قد استسلموا لديكتاتورهم أرسطو ، متقوقعين فى أديرتهم بعيدا عن العالم الحقيقى ، ومكبلين بمعرفة لا يريدون لها تطويرا · بل اتهمت مؤلفاتهم بأنها تحوى مجردات عقلية لا قيمة لها صيغت فى أسلوب معقد خشن مكتظ بالمصطلحات المزعجة · كما تناولت كتبهم ومحاولاتهم مسائل وهمية لا حقائق واقعية ·

ومع كل هذا النقد ، فان لرجال الحركة المدرسية الفضل فى حز العقل واثارة نشاط فكرى كان الخمول قد استولى عليه عدة قرون ، بل ان هذه الحركة مهدت لظهور ونمو الجامعات ·

٦ - الجامعات :

اشتهرت بعض المدارس الكاتدرائية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر حتى أنها جذبت الطلبة ليدرسوا فيها القانون الرومانى وفلسفة أرسطو والطب الى جانب الدراسات الأكاديمية (الفنون العقلية السبعة الحرة) بل ان طلبة كانوا يذهبون الى مدرسة معينة تبعا لشهرة أستاذ فيها ، مثل أبيلار فى باريس · وجاء طلبة من مناطق نائية طالبين العلم ، وقد تكونت من مجموعات من الطلبة وأساتذتهم ما يشبه النقـــابة وأطلقوا عليها اســـم Universitas كما انتظم الطلبة الأغراب فيما سمى Studium generale وفى القرن الخامس عشر أصبح اسم الجـــامعة ومدرسة الطلبـــة المغتربين صنوين ·

وتسبب فى ظهور المؤسسات التعليمية ، الصراع بين المذهبين الواقعى والمثالى واحتكاك الأوربيين بالمسلمين والعرب والثقافة الاغريقية · كما أن ظهور المدن قد غير من وجه الحياة وطور المجتمع الـذى تعطش الى تربيـــة تسايره ، فلم تعد التربية القديمة كافية لسد حاجات هذا المجتمع الـــذى تغير ·

وتميزت الجامعات فى بداية ظهورها بتلقـــائية الصلة بين الطلبـــة وأساتذتهم ، هذه الصلة التى كان كان قوامها النشاط الفكرى والنهـــم للمعرفة · وربط بين الأساتذة والطلبة عنصر مشترك ألا وهو الفقر · كما أن باب التعليم كان مفتوحا لكل طالب قادر على دفع مبلغ زهيـــد للأستاذ على أن يكون ملما باللغة اللاتينية وهى لغة التعليم · ولم تكن هناك فى بداية الأمر شروط للالتحاق سوى ما ذكرته ، كما أن الجامعات كانت فى منأى عن سلطة الكنيسة والدولة فى فترات نشأتها الأولى(١) ·

ثم أغدقت على الجامعات منح ، لعل أهمها المنح البابوية التى أعطت أفرادها حق التجول كمعلمين وطلبة ، وحمايتهم من الاعتداءات عليهم ، وحق محاكمة الطالب أمام مجلس من الجامعة ، وحقق هذا استقلال الجامعات عن الدولة والكنيسة ، ثم حق الخريجين فى التدريس ، وهذا بمثـــابة شهادة للتخرج ، مع اعفاءات للجامعة وللأساتذة والطلبة من الضرائب والخـــدمة العسكرية ·

---

(١) Mulhern, op cit, pp. 222 - 226.

ونظمت الجامعات فى أول الأمر على أساس أنها تضم طلبـــة من دول مختلفة ، وكانوا يقسمون داخلها الى مجموعات حسب الدول (كنظام الأروقة فى الأزهر) وقسم الأساتذة الى أقســـام حسب التخصصات : اللاهوت ، القانون المدنى ، الدراسات الأدبية ... الخ . وكانت الجامعات تعد الطلبة لمهن القانون والطب واللاهوت والتدريس الجامعى ، وكان الطلبة يدرسون أساسا الفنون العقلية الحرة السبعة لمـــدة تتراوح بين أربع وسبع سنوات ويمنح الطالب بعدها درجة الاستاذية (الماجستير) ثم يصبح الخريج مدرسا جامعيا اذا وجد طلبة يدرس لهم ، أو يلحق بوظيفة دينية اذا وجـــدها أو يصبح موظفا اذا واتته الفرصة ، أو يستكمل الخريج دراسته فى القانون أو الطب أو اللاهوت التى تمتد حوالى ثمان سنوات ليحصل الطالب عـــلى الدكتوراه ، وتراوحت مدة الدراسة فى الطب والقـــانون بين خمس وثمان سنوات .

وكان التنافس بين الأساتذة كبيرا ، فدخلهم الوحيد مما يدفعه الطلبة مباشرة لهم ، وقد اعتمد الطلبة فى معلوماتهم على ما يلقى عليهم داخل الدرس وكانوا يحفظون ما يكتبون عن ظهر قلب ، فالكتب نادرة ، حتى فى تعليم الطب اعتمدوا على معلومات وبعض كتب بسيطة ، كثيرا منها كتبه العرب ، واعتمدت عليه جامعات أوربا كمؤلفات ابن سينا وشروح وتعليقات عربيـــة فى الطب والعلوم .

ولم يكن الطلبة منزهين عن ارتكاب الأخطاء ، فقد عرفنا عقـــوبات الفصل والحبس لجرائم كالسرقة وعدم حفظ المواعيد .

وبدأت الجامعات عهودها الأولى بدون أدوات ، أو أجهزة او حتى مبان فكانت تتخذ من المزارع أو أفنية الكنائس مقاما . وكان الطلبة الموسرين يعيشون فى أماكن لائقة مع خدمهم . وعاش الفقراء فى اى ماوى يجدونه ، وأحيانا كان يسمح بعض القادرين للطلبة الفقراء بالسكنى فى ردهات أو قاعات سكنهم . ثم ازدادت مكرمات أهل الخير ، فمنحت الجامعـــات الكتب والمبانى للاقامة .

وعندما يتقدم الطالب فى دراسته كان يسمح له بالقاء محاضرات لمدة سنوات وكان هذا الطالب يسمى Bachelor أى السيد الصغير وهو لقب كان يحمله الفرسان الصغار فى خدمة الفرسان الأكبر ، وكان يعقد أحيانا امتحان قبل السماح للطالب بالتدريس، فاذا نجح أصبح حاملا للدرجة الجامعية

الأولى Bachelor Degree ثم يستعد الطالب لتقديم رسالة للحصول على درجة الأستاذية Master's Degree أو درجة الدكتوراه ، ويدافع عن رسالته أثناء مناقشتها فى امتحان عام ، غالبا كان يعقد فى الكنيسة ، فاذا نجح فى دفاعه ليس قبعة خاصة ، ثم يدعو أصدقاءه الى وليمة ويحق له أن يرتدى (روب الماجستير) ولم يسمح للاناث بالدراسة الجامعية ٠

هذا ، وكان من أول الجامعات فى أوربا جامعة بولونا (حوالى نهاية القرن الحادى عشر) ، وجامعة بادوا ونابولى (القرن الثالث عشر) وجامعة روما (القرن الرابع عشر) ، وفى أسبانيا أنشئت جامعات أهمها سلمانكا فى القرن الثالث عشر ، كما ازدهرت الجامعات فى فرنسا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر وأشهرها جامعة باريس ٠ أما الجامعات الانجليزية فأشهرها اكسفورد فى أوائل القرن الثانى عشر ، ثم كمبردج فى القرن الثالث عشر ٠

ومما يذكر بالفضل للعرب ، كما أورد ذلك منرو ، أن الجامعات الأوربية المسيحية استفادت فى مناهجها ودراساتها بما أعطاه العرب فى ميدان الثقافة فقد أخذ الأوربيون عن العرب منذ القرن العاشر أو الحادى عشر الأرقام الحسابية الهندسية التى حلت محل الرموز الرومانية المعقدة ، كما أثبت العرب كروية الأرض وكانوا يدرسون الجغرافية مستعينين بكرات تمثل كل منها الأرض ، فى الوقت الذى اعتقد مسيحو أوربا أن الأرض مسطحة ، وقد حول الأوربيون مراصد العرب الى مغارات لنواقيس كنائسهم ، ونقلوا عنهم الجبر وعلم الحساب العالى ، كما ساهم العرب بقسط وافر فى تقدم علوم الطب والتشريح والصيدلة والفلك ووظائف الأعضاء وأضافوا اليها الشىء الكثير من أبحاثهم التى أصبحت أصول هذه العلوم فى عصرنا الحديث٠ وفى ميدان الطبيعة شرحوا قوانين انتشار الضوء والجاذبية الشعرية ، كما درسوا بعض الظواهر الجغرافية كالشفق وارتفاع الطبقات العليا ووزن الهواء والجاذبية النوعية للأجسام ، ووضعوا الجداول الفلكية ، وصححوا نظريات الموازاةوالانعكاس واخترعوا الساعة ذات البندول ، هذا الى جانب اكتشافاتهم الجغرافية والبحرية وما أدخلوه الى أوربا من مأكولات ونباتات كالأرز والقطن وصناعات السكر والحرير ، بل انهم أعاروا أوربا علوم استخدام البوصلة والبارود والمدفع ٠

وقد أقبل كثيرون من الاساتذة الاوربيين على دراسة فلسفة ابن رشد وبخاصة ما كان فيها من شروح لفلسفة أرسطو بل أصبحت شروحه هذه من الأساسيات التى تدرس فى جامعات أوربا الى جانب كتابات ابن سينا ٠